﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النّمل: 91 - 93]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيَّنَت الآياتُ السّابقة المبدأَ والمَعادَ والنُّبوَّةَ ومُقدِّماتِ القيامةِ وصفةَ أهلِ القيامةِ مِنَ الثَّوابِ والعقابِ، وذلكَ كمالُ ما يتعلَّقُ ببيانِ أصولِ الدّينِ، ناسبَ أن يُختمَ الكلامُ بهذهِ الخاتمةِ اللَّطيفةِ[1]؛ إشعارًا بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أدَّى واجبَ الدَّعوةِ، وما عليهِ بعدُ إلّا الاشتغالُ بشأنِهِ، والاستغراقُ في عبادةِ ربِّهِ[2]؛ ليَحملَهم ذلكَ على أنْ يهتمّوا بأمورِ أنفُسِهم، ولا يتوهَّموا مِنْ شدَّةِ اعتنائِهِ ﷺ بأمرِ دعوتِهم أنَّهُ يُظهِرُ لهُم ما يُلجِئُهم إلى الإيمانِ[3]، ثمّ ختمَ ذلك بالأمر بتلاوة القرآن، وتعليم نبيّه الحمد، إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى سيُظهر دينَه؛ ليُناسبَ مطلعَ السّورة التي ابتدأت بذِكْرِ آياتِ القرآن الكريم.

ليس بعد دعوة النّاس وإقامة الحجج إلّا الطّاعة والاستسلام لله تعالى

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرَّمَهَا﴾: (حرم) أصلٌ يدلُّ على المنعِ والتَّشديدِ[4]، فالحرامُ: الممنوعُ منهُ[5]، وقد سُمّيَتِ الأشهرُ الحُرُمُ بذلكَ؛ لكونِها ممنوعًا فيها القتالُ[6]، والبيتُ الحرامُ والمسجدُ الحرامُ؛ لكونِهِ مُنِعَ مِنَ الجبابرةِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 575.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 306.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).
(5) الرّاغب، المفردات: (حرم).
(6) الخليل، العين: (حرم).

أو لأنَّهُ حُرِّمَ فيهِ أشياءُ وهي حلالٌ في غيرِهِ، كالاصطيادِ وقطعِ الأشجارِ ونحوِ ذلكَ[1]. ومعنى ﴿حَرَّمَهَا﴾ هنا: جعلَها حَرَمًا آمنًا، يأمنُ فيها اللّاجئُ إليها، ولا يُختلَى خلاها، ولا يُعضَدُ شَوْكُها، ولا يُنفَّرُ صَيْدُها[2].

2) ﴿سَيُرِيكُمْ﴾: (رأى) أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ[3]، فالرُّؤيةُ بالعينِ تتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلمِ تتعدَّى إلى مفعولينِ، كقولِكَ: رأيتُ زيدًا عالمًا[4]، والإراءةُ: حملُ الغيرِ على الرُّؤيةِ. ومعنى ﴿سَيُرِيكُمْ﴾: سيجعلُكم ترونَ.

3) ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾: (عرف) مِنَ الأصولِ الَّتي يدلُّ عليها: السُّكونُ والطُّمأنينةُ[5]، ومِنْ ذلكَ: المعرفةُ والعِرْفانُ، أي: إدراكُ الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأَثَرِهِ[6]. ومعنى ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾: تعرفونَ دلالتَها على ما بلَّغَكم الرَّسولُ مِنَ النِّذارةِ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العبادةُ وقراءة القرآنِ طريقُ تعريف النّاس بآيات الله تعالى

تُبيِّن الآياتُ الكريمة ما جاء به الأمرُ الرّبّانيُّ لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ فيما يقول للمشركينَ من أنَّ عملَه مقصورٌ على عبادة ربِّ مكَّةَ الَّذي حرَّمَها على خلقِهِ أنْ يَسْفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يَظلموا فيها أحدًا، أو يعبدوا فيها غيرَه، وأنَّه أُمِرَ أنْ يكون مِنْ جملةِ المسلمينَ، وأنْ يواظبَ على قراءةِ القرآنِ ودعوةِ النّاسِ بهِ، فمَنْ سلكَ سبيلَ الحقِّ والرَّشادِ فإنَّ منفعةَ ذلكَ راجعةٌ إليهِ، ومَنْ أعرضَ عنهُ فإنَّ وبالَ إعراضِهِ عليهِ، ثمّ أرشده إلى حمد اللّهِ، وأنَّه سيُريهم سبحانه مِنْ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حرم).
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 625.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رأى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرف).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عرف).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 85.

آياتِهِ ما يعرفونَ بهِ صِدْقَه في الدُّنيا والآخرة، ثمَّ يقولُ سبحانَهُ لنبيِّهِ ﷺ: وما ربُّكَ يا محمَّدُ بغافلٍ عمّا تعملونَ مِنَ الأعمالِ، وسيجزي كلًّا منكم بما عملَهُ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآية عما قبلها:

احتمالُ الاستئناف للنّحويِّ والبيانيِّ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بتقديرِ قولٍ محذوفٍ، جيءَ بهِ بعدَ بيانِ أحوالِ المبدأِ والمَعادِ، وشرحِ أحوالِ القيامةِ؛ إثارةً لهِمَمِهم إلى حصيلِ ما ينفعُهم، والتَّوجُّهِ نحوَ التَّدبُّرِ فيما قَرَعَ أسماعَهم مِنَ الآياتِ الباهرةِ الكافيةِ في إرشادِهم[1].

ويحتملُ أنْ يكونَ الاستئنافُ فذلكةَ الحسابِ، وختامًا للسّورةِ، أفسدَ بهِ على المشركينَ فرحَهم بما يَحْسَبونَ أنَّهم أفحموا الرَّسولَ ﷺ بما ألقَوْهُ عليهِ مِنَ الشُّبَهِ، ويزيدُ الرَّسولَ تثبيتًا بأنَّهُ أدَّى أمانةَ التَّبليغِ[2]، والاستئنافُ على هَذَينِ الوجهينِ نحويٌّ.

ويحتملُ أنْ يكونَ الاستئنافُ بيانيًّا جاءَ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ يقتضيهِ الكلامُ السّابقُ، بيانُ ذلكَ: أنَّهُ لمّا أتمَّ الدّينَ بذِكْرِ الأصولِ الثَّلاثةِ: المبدأِ، والمَعادِ، والنُّبوَّةِ، وكانَ ذِكْرُهُ لها على وجوهٍ مُرغِّبةٍ ومُرهِّبةٍ، أوجبَ هذا التَّرغيبُ والتَّرهيبُ لكلِّ سامعٍ أنْ يقولَ: فما الَّذي نعملُ؟ ومَنْ نعبدُ؟ فأُجيبَ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ الآية[3]، وبناءً على ذلكَ يكونُ الفصلُ لِما بينَ الجملتينِ مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجبِ للفصلِ.

نُكْتةُ حذفِ لفظِ القولِ:

سُرعةُ الامتثالِ برهانُ النُّبوّةِ وركنُ المديحِ

قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ على تقدير

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 54.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227.

قولٍ محذوفٍ قبلَهُ، أي: (قلْ يا محمَّدُ لقومِكَ: إنَّما أُمِرْتُ...) إلخ[1]، وقد دلَّ على هذا الحذفِ قولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، وقولُهُ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ فإنَّ الأوَّلَ مُفرَّعٌ عليهِ مُتَّصلٌ بهِ، والثّانيَ معطوفٌ على أوَّلِ الكلامِ[2]. وفي هذا الحذفِ إيماءٌ لطيفٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد سارعَ إلى الامتثالِ، فهو يُخبرُ بما أُمِرَ بهِ، وكأنْ لم يكنْ أمرٌ قبلَ هذا الإخبارِ، كما أنّ في العدولِ عن ذِكرِ القولِ إلى نُطْقِ المُتكلِّمِ بما قالَهُ المحكيُّ عنهُ ضربًا مِن استحضارِ الحالةِ، حتَّى كأنَّ المُتكلِّمَ هو صاحبُ القولِ[3].

بلاغةُ القَصْرِ بأداة ﴿إِنَّمَآ﴾:

جاء افتتاح الكلام بأداة ﴿إِنَّمَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ الدّالّة على الحصرِ[4]؛ لإفادةِ حصرٍ إضافيٍّ باعتبارِ ما تضمَّنَتْهُ محاوراتُهم السّابقةُ مِنْ طلبِ تعجيلِ الوعيدِ، ومِنْ إنكارِ الحشرِ، والمعنى: ما أُمِرْتُ بشيءٍ ممّا تبتغونَ مِنْ تعيينِ أَجَلِ الوعيدِ، ولا مِن اقتلاعِ إحالةِ البعثِ مِنْ نفوسِكم، ولا بما سوى ذلكَ إلّا بأنْ أثبُتَ على عبادةِ ربٍّ واحدٍ، وأنْ أكونَ مُسلِمًا، وأنْ أتلوَ القرآنَ عليكُم[5]، وفي ذلكَ بَسْطٌ لعُذْرِهِ ﷺ، ودفعٌ للمَلامِ عن نفسِهِ، والعُهْدةُ بعدَ ذلكَ عليهِم، وكلُّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ، وفيهِ أيضًا مبالغةٌ في أهمّيَّةِ الأوامرِ المذكورةِ، وكأنَّهُ ﷺ لم يُؤمَرْ إلّا بها، وقد جاء القصر بأداة ﴿إِنَّمَآ﴾ وهي التي تكون لما يعلمه المخاطَب؛ لأنَّ المخاطَبين يعلمون مضمونَ القَصْرِ، وأنَّ العبادةَ ليست لأحدٍ إلّا للّه تعالى، وعليه فالقصر أفاد التَّوكيد لمضمون الكلام.

توكيدُ ما استقرَّ في الأذهانِ طريقٌ تثبيت المعاني في القلوب

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 55.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 719.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 598.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 55.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الأمرِ:

ليس للنَّبيِّ منَ الأمـرِ شيءٌ ولا مـنَ الـوحـي إلّا الامتثال

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمال مفردة (الأمرِ) في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾، ولم يُقَلْ: (إنَّما أعبدُ)؛ للتَّأكيدِ على أنَّ أصلَ العبادةِ وما عُطِفَ عليها مِنَ المأموراتِ إنَّما هو بأمرِ اللهِ تعالى، وليسَتْ مِنْ عندِهِ ﷺ كما يزعمُ المشركونَ، وفي ذلكَ تعظيمٌ لهذهِ المأموراتِ ببيانِ أنَّها إلَهيَّةُ المصدرِ، مع الحثِّ على الامتثالِ، ببيانِ أنَّهُ ﷺ أوَّلُ المأمورينَ، وهو قُدوتُهم في العبادةِ والطّاعةِ؛ لأنَّ هذهِ الأوامرَ ليسَتْ خاصَّةً بهِ[1].

نُكْتَةُ بناءِ الفعلِ للمفعولِ:

الأمرُ للهِ وحدَهُ والعبدُ مطيعٌ لله وحدَه

بُنِيَ فعلُ ﴿أُمِرْتُ﴾ للمفعولِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾، وقولِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ للعلمِ بهِ، إذ سياقُ الكلامِ يدلُّ على أنَّ الَّذي أمرَهُ هو اللهُ تعالى[2]، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِ الأمرِ والآمرِ؛ إذِ الآمرُ مُتعيِّنٌ، فلا يُتصوَّرُ سواهُ، ولا ينصرفُ الذِّهنُ إلى غيرِهِ، وفيهِ أيضًا حثٌّ على الامتثالِ والاستجابةِ، فهو أمرُ مَنْ لا يُرَدُّ لهُ أمرٌ[3].

غرضُ التَّعبيرِ بالماضي:

التَّـوحـيـدُ حـقُّ اللهِ على العبيدِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾، وقولِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ هَذَينِ الأمرَينِ مُتحقِّقانِ مُتيقَّنانِ، لا شكَّ فيهما ولا ارتيابَ، وقد جرَى بهما قلَمُ الإرادةِ منذُ الأزلِ، فعبادةُ اللهِ تعالى هي حقُّ اللهِ على العبيدِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، والإسلامُ دينُ الأنبياءِ جميعًا، والنَّبيُّ ﷺ يستنُّ بسنَّتِهم، ويقتدي بهَدْيِهم، وفي ذلكَ إظهارٌ لجَلادَتِهِ ﷺ وتصلُّبِهِ في الحقِّ.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 460.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 276، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 241.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 78.

نُكْتَةُ حذفِ الجارِّ في المأمورِ بهِ:

تعظيمُ المأمورِ بهِ من عبادةِ اللهِ تعالى

حُذف حرف الباء الذي هو لتعدية فعلِ ﴿أُمِرْتُ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ فلم يقل: (بأنْ أعبدَ)؛ لتعظيم المأمورِ بهِ من عبادةِ اللهِ تعالى بجعلِهِ عُمْدةً في الكلامِ[1]، وإيقاعِ الأمرِ عليهِ.

بلاغةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّلِ دونَ الصَّريح:

العبادةُ المعتبرة هي الدّائمةُ المتّصلة

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ المُصدَّرِ بـ ﴿أَنْ﴾ المصدريَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾، فـ﴿أَنْ﴾ مصدريَّةٌ؛ لأنَّ نصبَ الفعلِ المضارعِ بعدَها يُعيِّنُ أنَّها مصدريَّةٌ، ويمنعُ احتمالَ أنَّها تفسيريَّةٌ[2]، دونَ المصدرِ الصَّريحِ، فلم يُقَلْ: (بعبادةِ ربِّ هذهِ البلدةِ)؛ ليُتوصَّلَ بالمضارعِ إلى إفادةِ أنَّ المطلوبَ هو استمرارُ عبادةِ اللهِ تعالى وتجدُّدُها، والمقصودُ بذلكَ أنْ يبقَى العبدُ على هذهِ العبادةِ إلى حينِ وفاتِهِ، وفي ذلكَ قطعٌ لأطماعِ المشركينَ برجوعِ النَّبيِّ ﷺ وأتباعِهِ عن إفرادِ اللهِ تعالى بالعبادةِ، وبيانٌ أنَّ المأمورَ به هو استمرارُ العبادةِ للهِ وحدهِ، دونَ انقطاعٍ أو انفصالٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الأُلوهيَّةِ:

الامتنان بالحفظ والعناية من آثار الرُّبوبيَّة

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ عنوانِ الرُّبوبيَّة في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ دون الأُلوهيّة، فلم يُقَلْ: (أُمِرْتُ أنْ أعبدَ اللهَ)؛ لأنَّ الأُلوهيَّةَ تكليفٌ، أمّا الرُّبوبيَّةُ فعطاءٌ وتربيةٌ، فالآيةُ تُبيِّنُ حيثيَّةَ سماعِ العبادِ للحُكمِ مِنَ اللهِ تعالى، وهي أنَّهُ تعالى يُربّيهم بهذهِ الأوامرِ والنَّواهي، وسوفَ تعودُ عليهم ثمرةُ هذهِ التَّربيةِ[3]، والرُّبوبيَّةُ المُنبئةُ عن الإحسانِ والإنعامِ بحسَبِ معناها اللُّغويِّ أنسبُ بتحريمِ البَلْدةِ، الَّذي هو نعمةٌ جليلةٌ على قريشٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى جعل مكّة آمنةً ويُتخطّف النّاسُ من حولها، وهذا من آثار ربوبيّته تعالى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 228.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 302.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 17/ 10862.

في حفظ البلاد والعباد، وامتنانٌ على أهلها، ووعدٌ بأن يكون لما حولها ما كان لها إنْ هم أطاعوه، واتّبعوا أمرَ نبيِّهم ﷺ.

توجيهُ تخصيصِ البلدةِ بالذِّكر:

مكَّة أحبُّ البقاعِ وأشرفُها وأعظمُها

خصَّ ﷻ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ البلدةَ بالذِّكر دونَ سائرِ البلدانِ، وهو ربُّ البلادِ كلِّها؛ لما فيه مِنَ التَّعريضِ بضلالِ مشركي مكَّةَ؛ إذ عَبَدوا أصنامًا لا تملكُ مِنَ البَلْدةِ شيئًا، ولا أكسبَتْها فضلًا ومزيَّةً، ولم يَجْرِ لها عليهم نعمةٌ، ولا تَقدِرُ لهُم على نفعٍ ولا ضَرٍّ[1]، فأرادَ أنْ يُعلِمَهم بأنَّهم لا يملكونَ تلكَ البَلْدَة، فكاشفَهم بما تُكِنُّهُ صدورُهم مِنْ خواطرِ إخراجِ الرَّسولِ ﷺ والمؤمنينَ مِنْ مكَّةَ، وذلكَ مِنْ جملةِ ما يقتضيهِ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النّمل: 74][2]، ولأنَّ مكَّةَ هي أحبُّ بلادِهِ إليهِ، وأكرَمُها عليهِ[3]، مع إرادة تشريفها وتعظيم شأنِها[4]، وإظهار الاعتناءِ بها[5].

غرضُ الإشارةِ بأداة القريبِ:

مكَّةُ قريبةٌ منَ القلوب، حاضرةٌ في العقولِ، ومَهْبِطُ الأفئدة

أُشيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ إلى البلدةِ المُحرَّمةِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ؛ لأنَّها حاضرةٌ في أذهانِ المخاطَبين قريبةٌ منهُم[6]، والإشارةُ إلى البقاعِ بهذا الاعتبارِ شائعةٌ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: 31][7]، وفي هذهِ الإشارةِ تعظيمٌ لمكَّةَ وتشريفٌ لها وتقريبٌ، وفيها دلالةٌ على أنَّها موطنُ نبيِّهِ، ومَهْبِطُ وحْيِهِ[8]، ولذلكَ جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 511.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 576، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 625.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 218.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 228.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 576.

فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85]؛ تسليةً لقلبِه، أي: إنَّ الَّذي أوجبَ عليكَ العملَ بأحكامِ القرآنِ لرادُّكَ إلى مكَّةَ[1]، وما في هذهِ الإشارةِ مِنَ التَّعظيمِ هو سِرُّ العُدولِ عن ذِكْرِ مكَّة باسمِها العلَمِ[2]، فإنَّ الإشارة إلى المعروفِ إنَّما يكون بما يكتنزه منَ الشَّرف والمكانة، وذلك بحسب السّياق الدّالّ عليه، كما أنَّ الإشارة بالقريبِ لإشعارِ المخاطَبين بما يُحيط بهم منَ المننِ النّازلة عليهم بسبب مكانة مكّة عند الله تعالى.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾:

تكتسبُ الألفاظ تعريفَها العهديَّ بالقرائن السّياقيَّة

تعريفُ ﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ للعهدِ الخارجيِّ؛ لأنَّها اسمُ علَمٍ لطائفةٍ مِنَ الأرضِ مُعيَّنةٍ معروفةٍ للمُخاطَبينَ، وهي مكَّة[3] وما حولَها إلى نهايةِ حدودِ الحَرَم[4]، فصارَتْ لذلكَ بحيثُ إذا أُطلقَتِ البلدةُ انصرفَتْ إليها، وعُرِفَ أنَّها مكَّةُ[5]، كالنَّجم الَّذي أصبحَ علَمًا بالغلَبةِ للثُّريّا، وفي ذلكَ تفخيمٌ لمكَّةَ شرَّفَها اللهُ[6]، مع ما في هذا السّياق منَ القرائن اللَّفظيَّة، من مثل اسم الإشارة، وإضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى اسم الإشارة، ووصفها بالاسم الموصول، فكلُّها دالَّةٌ على مكَّة المُكرّمة.

بلاغةُ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ بالإبدالِ:

زيادةُ أوصاف البيانِ دليلُ العناية وبرهانُ الرّعاية

جاء لفظُ ﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾ بدلًا مِن اسم الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾؛ زيادةً في تعيين اسمِ الإشارةِ وتشخيصًا لهُ[7]، وذلكَ أنَّ أصلَ أسماءِ الإشارةِ أنْ يُستغنَى بها عن زيادةِ تبيينِ المُشارِ إليهِ تبيينًا لفظيًّا؛ لأنَّ الإشارةَ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 599، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 461.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 276.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 228.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (بلد).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 228.

بيانٌ، وقد يزيدونَ الإشارةَ بيانًا، فيذكرونَ بعدَ اسمِ الإشارةِ اسمًا يُبيِّنُهُ؛ للدّلالةِ على أنَّ المُشارَ إليهِ قُصِدَ استحضارُهُ مِنْ بعضِ أوصافِهِ[1]، وهنا قُصِدَ استحضارُ البَلْدةِ مِنْ حيثُ كونُها مكانًا يتنعَّمونَ فيهِ بالأمنِ والخيراتِ، وذلكَ أبلغُ في الحُجَّةِ والإلزامِ، وذِكرُ البدلِ بعد اسمِ الإشارةِ يُنزّل منزلةَ التَّفصيلِ بعد الإجمالِ، لإفادة الاهتمامِ بالبدلِ، وزيادة تعظيمه وتشريفه، وتقريره في النُّفوسِ؛ لأنَّ النُّفوسَ تتشوَّفُ عندَ ذكرِ المُبدَلِ منهُ - وهو اسمُ الإشارةِ هنا - لمعرفةِ البدلِ، فإذا جاءَ ذكرُهُ تمكَّنَ في النُّفوسِ غايةَ التَّمكُّنِ، خصوصًا أنَّ البَلْدةَ هنا قد وردَتْ بالاسمِ الَّذي صارَ علَمًا عليها، بحيثُ يُميِّزُها عن غيرِها.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالبَلْدةِ دونَ البَلَدِ:

البَلَدُ والبَلْدةُ كلاهما علَمٌ بالغلَبةِ على مكَّةَ المكرَّمةَ شرَّفَها اللّهُ تعالى، أمّا البَلَدُ فمأخوذٌ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: 1]، وأمّا البَلْدةُ فمأخوذةٌ مِنْ قولِهِ سبحانَهُ هنا: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾[2]، وقد اختيرَ لفظُ البَلْدةِ المُؤنَّثِ دونَ لفظِ البَلَدِ المُذكَّرِ؛ لموافقتِهِ أسماءَ المواضعِ الَّتي وردَتْ في هذهِ السّورةِ، فهي مُؤنَّثةٌ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ [النّمل: 34]، وقولِهِ: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ۝٤٨﴾ [النّمل: 48]، وقولِهِ: ﴿قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ [النّمل: 56]، وذلكَ نوعٌ مِنْ أنواعِ التَّلاؤمِ اللَّفظيِّ الَّذي يتجلَّى في سوَرِ القرآنِ الكريمِ، ولما فيه منَ المقابلةِ الإيمائيَّةِ بينَ البلدة وما سواها من البلدان.

بلاغة التَّلاؤم اللَّفظيّ في سور القرآن

فائدةُ النَّعتِ بالموصولِ:

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 714.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (بلد).

في الصِّلةِ تشريفًا لها بعدَ تشريفٍ، وتعظيمًا إثْرَ تعظيمٍ، وإشعارًا بعلَّةِ الأمرِ وموجِبِ الامتثالِ له، وهو نعمتُهُ سبحانَهُ عليهم وتربيتُهُ لهُم؛ فإنَّ في تحريمِها من حيثُ يُتخطّفُ النّاس من حولهم أعظمَ المِنَن، ففيهِ إيماءٌ إلى غايةِ الشّناعةِ في اقترافِ ما اقترفه المشركون، من تعاطي أشنعِ أفرادِ الإلحادِ، حيثُ تركوا عبادةَ ربِّها، ونَصَبوا فيها الأوثانَ، وعَكَفوا على عبادتِها[1].

الإنعامُ يوجِبُ الامتثالَ ويدفعُ الاختيالَ

علَّةُ وصفِ الفاعل ﴿رَبَّ﴾ دون المفعول ﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾:

جاء الاسمُ الموصولُ المتضمِّن بصلته تحريمَ مكَّةَ المكرمَةَ وصفًا للفظ الرّبوبيَّة لا للبلدة، فلم يقل: (البَلْدةِ الَّتي حرَّمَها اللّهُ)، وإنَّما قال: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾؛ لأنَّ سياقَ الآية في بيانِ عبادته ﷻ لربِّ البلدة المحرَّمة، فكان ذِكرُ المُحَرِّم سبحانَه لا المكانِ المحرَّم هو الأولى، وليُؤذِنَ بتعظيمِه لها؛ لأنّا إذا قلنا: (ربَّ هذهِ البَلْدةِ الَّذي حرَّمَ مكَّةَ) أعلَمْنا أنَّ مكَّةَ مِنْ جلالةِ قَدْرِها وعُلوِّ مرتبتِها بحيثُ يصِحُّ أنْ يوصفَ بتحريمِها اللّهُ ﷻ، وأنَّ الوصفَ بِه كالوصفِ بالأسماءِ الحُسْنى، وإذا قلنا: (ربَّ هذهِ البَلْدةِ الَّتي حرَّمَها اللّهُ) لم يُفِدِ الكلامُ ذلكَ، فلم يَحْسُنْ ذلكَ الحُسْنَ[2].

لَـحْـظُ المعنى السّياقيّ أصلٌ في نظم المباني

توجيهُ تخصيصِ لفظِ التّحريمِ بالذِّكرِ:

خصَّ النَّظمُ الكريم لفظَ التَّحريم بالذِّكر دونَ الأمنِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، ولم يُقَلْ: (آمَنَها)؛ لأنَّ التَّحريمَ هو سببُ الأمنِ، ففي التَّعبيرِ بِه تنبيهٌ على أنَّ الأمنَ الَّذي تنعُمُ بِه قريشٌ هو بسببِ تحريمِ اللّهِ تعالى لهذهِ البَلْدةِ، وتوعُّدِهِ المُعتديَ بالعقوبةِ، وذلكَ أعظمُ في المِنَّةِ وإقامةِ الحُجَّةِ؛ لأنَّ تحريمَها يدخلُ فيهِ منعُ غزوِ أهلِها والاعتداءِ عليهم وظُلمِهم وإخافتِهم[3]، ولذلك لمّا وُصفت

ذِكْـرُ الأصـولِ العَليَّة منبّهٌ على الآثارِ الفرعيَّة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 306، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 248.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 600.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.

مكَّة بالأمن في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: 57] كان الوصف للحَرَم؛ لبيانِ أنَّ التَّحريم هو الأصل، وهو الجالبُ للأمن، فالأمنُ ثمرةُ التَّحريم، كما أنَّ الصِّفةَ فرعُ الموصوفِ، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [قريش: 3 - 4].

نُكْتَةُ المجازِ بالحذفِ وفائدته:

تقليلُ ألفاظٍ من شأنه تفخيمُ معانٍ

معنى التَّحريم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ تحريمُ التَّعرُّضِ لما فيها مِنَ الحشيشِ سوى الإذْخِرِ، وتحريمُ الصَّيدِ والقتل فيها، فيكونُ إيقاعُ التَّحريمِ عليها مجازًا[1] بالحذف، على تقدير محذوفات، ونُكْتَةُ هذا المجازِ الإيجازُ؛ إذ يُغني عن سَرْدِ المُحرَّماتِ وتَعْدادِها، والمبالغةُ في اتِّصافِ مكَّةَ بالتَّحريمِ، حتَّى كأنَّ التَّحريمَ شاملٌ لكلِّ شيءٍ فيها، ولكلِّ جزءٍ مِنْ أجزائِها، وكأنَّها تجسَّدَتْ في صورةِ شيءٍ مُحرَّمٍ، يُمنَعُ التَّعرُّضُ لهُ بأيِّ وجهٍ مِنَ الوجوهِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي:

تحريمُ مكَّةَ قديمٌ، والاعتداءُ عليها ذميم

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾؛ لتأكيدِ التَّحريمِ، وبيانِ أنَّهُ أمرٌ مُتيقَّنٌ، مُتحقِّقٌ عندَهم، لا يشكّونَ فيهِ؛ فهم ينعمونَ بنعمةِ الأمنِ كما نَعِمَ بها آباؤُهم منذُ زمنٍ بعيدٍ، فتحريمُ مكَّةَ منذُ زمنِ إبراهيمَ عليه السلام، كما قال عليه السلام داعيًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: 37]، وذلكَ أقطعُ لعُذرِهم، وأبلغُ في ذمِّهم وتوبيخِهم على شركِهم.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواو لعطف العامّ على الخاصّ أو الحال

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿حَرَّمَهَا﴾، وهو مِنْ بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ[2]، المُفيدِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 461.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 218.

تعظيمَ الخاصِّ، وذلكَ أنَّهُ تعالى لمّا أخبرَ أنَّهُ مالكُ هذهِ البَلْدةِ أخبرَ أنَّهُ يملكُ كلَّ شيءٍ، فجميعُ الأشياءِ داخلةٌ في ربوبيَّتِهِ، فشُرِّفتِ البَلْدةُ بذكرِ اندراجِها تحتَ ربوبيَّتِهِ على جهةِ الخصوصِ، وعلى جهةِ العمومِ[1]. ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ[2]، أي: الَّذي حرَّمَها حالَ كونِهِ لَهُ كلُّ شيءٍ، فيفيدُ التَّقييدُ بهذهِ الحالِ أنَّ لهُ تعالى أنْ يُحرِّمَ ما يشاءُ مِنَ البُلدانِ والأشياءِ، فلا مالكَ سواهُ، ولا مُتصرِّفَ على الحقيقةِ غيرُهُ.

بلاغةُ الجملةِ بينَ الاحتراسِ والتَّتميمِ:

مكّةُ أصلُ الموجوداتِ في التَّوحيدِ والعبادةِ

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ أنْ يكونَ احتراسًا[3]؛ لئلّا يُتَوَهَّمَ مِنْ إضافةِ ربوبيَّتِهِ إلى البَلْدةِ اقتصارُ مِلْكِهِ عليها، فهو تعالى ليسَ كالمُلوكِ الَّذينَ ليسَ لهُم إلّا ما حَمَوْهُ على غيرِهم[4]. ويحتملُ أنْ يكونَ تتميمًا[5]، جعلَ تعالى دخولَ كلِّ شيءٍ تحتَ ربوبيَّتِهِ ومِلْكِهِ كالتّابعِ لدخولِ البَلْدةِ تحتَهما[6]، حيثُ أضافَ الرَّبَّ إلى البَلْدةِ إضافةَ تمليكٍ، ثمَّ عقَّبَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ على وجهِ التَّتميمِ، ليُؤْذِنَ بالفَرقِ بينَ المِلْكينِ، وأنَّ أحدَهما كالتّابعِ، والآخرَ كالمتبوعِ[7]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ مَلِكًا مَلَكَ مِثلَ هذهِ البَلْدةِ ومَلَكَ كلَّ شيءٍ عظيمُ الشَّأنِ[8]، يرفعُ مِنْ مرتبةِ ما أرادَ رِفْعتَه ويَحُطُّ مِنْ منزلةِ ما أرادَ حطَّهُ، يُعِزُّ مَنْ يشاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ[9]، وفي التّتميمِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 276.
(2) درويش، إعراب القرآن: 7/ 267.
(3) ويسمَّى التّكميل أيضًا، وهو: "أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه". ينظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح مع مختصر التّفتازانيّ، ص: 469.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.
(5) وقد عرَّفه القزوينيّ في تلخيص المفتاح مع مختصر التّفتازانيّ، ص: 471: "أن يُؤتى في كلام لا يوهم خلافَ المقصود بفضله لنُكتة".
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 601، وظاهرٌ أنّ تعريف القزوينيّ للتّتميم لا ينطبق على ما ذكره الطّيبيّ هنا، لأنّ ما في هذه الآية جملة لا فضلة.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389.
(9) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 601.

مزيدُ مدحٍ وثناءٍ لمَكَّة، إذ جعلَها الأصلَ لكلِّ ما يُملَك، وعطفَ عليها كلَّ ما يُملَك، كما أنَّ الوجودَ إنَّما كان للعبادةِ، ومكّةُ هي مركز الأرض توحيدًا وعبادة.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها في ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾:

كـلُّ شيءٍ مِلكٌ للهِ تعالى

لامُ الجرِّ في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ للمِلْكِ والاستحقاقِ، وهي تفيدُ أنَّ كلَّ شيءٍ للهِ سبحانَهُ مِلْكًا واستحقاقًا، وفي التَّعبيرِ بها ملاءمةٌ لمقامِ الحَثِّ على عبادةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ الإلهَ الَّذي يستحقُّ العبادةَ دونَ سواهُ هو المتَّصفُ بكونِ كلِّ شيءٍ تحتَ ربوبيَّتِهِ ومِلْكِهِ وسلطانِهِ، ويحتملُ أنْ تكونَ اللّامُ للاختصاصِ، فتفيدُ أنَّ كلَّ شيءٍ مُختصٌّ باللهِ تعالى، لا يتجاوزُهُ إلى غيرِهِ.

غرضُ تقديمِ المُسندِ على المُسنَدِ إليه:

مالكُ المخلوقاتِ هو المُستحِقُّ للعبادةِ دونَ سواه

قُدِّمَ الجارّ والمجرور (لَهُ) على ﴿كُلُّ شَيۡءٖ﴾ للتَّخصيصِ، أي: لهُ وحدَهُ سبحانَهُ كلُّ شيءٍ[1]، ولا شيءَ لسواهُ، وهذا التَّخصيصُ مِنْ مُقتضَياتِ مقامِ الأمرِ بعبادةِ اللهِ تعالى، ونَبْذِ الشِّركِ والأوثانِ؛ لأنَّ الأصنامَ الَّتي يعبدُها المشركونَ مِنْ دونِ اللهِ لا تضرُّهم ولا تنفعُهم، ولا تملكُ مِثْقالَ ذرَّةٍ في السَّماواتِ والأرضِ، فيا لَخسارةِ مملوكٍ يعبدُ مملوكًا مِثْلَهُ، ويتركُ عبادةَ مالكِ الدُّنيا والآخرةِ!

فائدةُ إضافةِ لفظِ العموم إلى لفظٍ مُبْهَم:

كـلُّ الموجوداتِ مناديةٌ بوجوبِ عبادةِ اللهِ وحْدَه

آثَرَ النَّظمُ الكريم اختيارَ كلمةِ ﴿شَيۡءٖ﴾ في قولِهِ تعالى ذِكرُهُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾؛ لإفادةِ شمولِ مِلْكِهِ تعالى لكلِّ الموجودات[2]، ومنها مكَّةُ الَّتي حرَّمَها؛ لأنَّ هذهِ الكلمةَ مِنْ أسماءِ الأجناسِ العاليةِ العامَّةِ، وهي مُتوغِّلةٌ في العموم، وبإضافةِ ﴿كُلُّ﴾ إليها زيادةٌ في العموم، وفي هذا التَّعميمِ زيادةُ تنبيهٍ على استحقاقِهِ تعالى الإفرادَ

(1) اطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 348.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.

بالعبادةِ، وزيادةُ تقبيحٍ وتشنيعٍ لحالِ مَنْ يَحيدُ عن عبادتِهِ سبحانَهُ؛ وذلك لأنَّ إثبات عموم مِلْكِه سبحانَه لكلِّ موجودٍ، ممّا يزيد العقلَ قناعةً باستحقاقِه تعالى العبادةَ دونَ سواه، فمن لم يمتثل استحقَّ الوبالَ والثّبور.

معنى العطفِ وفائدتُه:

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾، فتفيدُ انتظامَها معَها في سِلْكِ المأموراتِ، وفائدته: أنَّ المشركينَ ربَّما قالوا: ونحنُ نعبدُهُ بعبادةِ الأصنامِ الَّتي نرجو أنْ تُقرِّبَنا إليهِ زُلْفَى، فعيَّنَ الدّينَ الَّذي تكونُ بهِ العبادةُ، وهو دينُ الإسلامِ[1]، فاجتمع في العطفِ تعيينُ المعبود، وتعيينُ طريقةِ عبادته ومسلكِ الوصول إليه.

تعيينُ المعبودِ وتعيينُ طريقةِ الوصول إليه

سِرُّ تكرارِ فعلِ ﴿وَأُمِرْتُ﴾:

جاء تكرار فعلِ ﴿وَأُمِرْتُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بعدَ ذكرِهِ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾؛ لبيانِ الفرقِ بينَ الأمرين؛ فإنَّ الأوَّلَ يختصُّ بتوحيدِ اللّه تعالى بالعبادة، والآخر يقتضي وحدةَ الرّسالة للإسلام والمسلمين، ولهذهِ النُّكتةِ لم يُكرَّرْ (أُمِرْتُ) في قولِه تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لأنَّ كلًّا مِنَ الإسلامِ والتِّلاوةِ مِنْ شؤونِ الرِّسالة[2]؛ ففيه إظهارُ العنايةِ والاهتمامِ بكلِّ واحدٍ مِنَ الأمرين؛ لأنَّهُ يُشيرُ إلى أنَّ كلَّ جملةٍ مِنَ الجملتينِ المتعلِّقتينِ بعبادتِه تعالى مقصودةٌ لذاتِها، وليسَتْ تابعةً للأخرى.

وحدةُ العبادةِ ووحدةُ الرِّسالةِ محلُّ عنايةٍ وموضعُ رعاية

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ مضارعًا:

جاء التَّعبير بفعلِ الكونِ الدّالِّ على تمكُّنِ خبرِ هذا الفعلِ مِنِ اسمِهِ، وعُبِّرَ عنهُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ

العبادةُ الدّائمةُ لا تثبت إلّا بالنَّهجِ السّويّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 229.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ للدّلالةِ على الاستمرارِ، أي: أنْ أكونَ مِنَ المسلمينَ كونًا هو في غايةِ الرُّسوخِ[1]، وفي ذلكَ حثٌّ للمُسلِمِ على الثَّباتِ على دينِهِ وعقيدتِهِ؛ امتثالًا لهذا الأمرِ، واقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ، ولبيان أنَّ العبادة الدّائمة لا تثبت إلّا بالكون المستمرّ على النَّهجِ السَّويّ.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها في ﴿أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ ﷺ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ للتَّبعيضِ، فيفيدُ الأمرَ باللَّحاقِ برَكْبِ المُسلِمينَ وجماعتِهم، والمعنى: وأُمِرْتُ أنْ أكونَ بعضَ المسلمينَ، وأنتظمَ في سِلْكِهم وزُمْرتِهم، فأفاد هذا الحرف أنَّ المسلمَ هو جزءٌ من البناء العامّ للأُمّة، وأنَّه لبنةٌ من لبناتها، والمعنى: أنْ أكونَ مِنْ جملةِ الثّابتينَ على مِلَّةِ الإسلامِ والتَّوحيدِ[2].

المسلم لبنةٌ في جسدِ الأُمّة الواحد

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الإسلامِ دونَ الإيمانِ:

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الإسلامِ دونَ الإيمانِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ لأنَّ الإسلامَ هو الاسم العلَمُ على دين التَّوحيدِ الذي جاء به جميعُ الأنبياءِ الذين أرسلهمُ اللّهُ تعالى، فكان ذِكْرُه تأكيدًا لبيانِ وحدةِ الرِّسالة والمرسَلين؛ فحكاهُ تعالى عن إبراهيمَ ﷺ بقولِهِ: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة: 131]، وعن إسماعيلَ ﷺ بقولِهِ: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [البقرة: 128]، وعن يعقوبَ وبنيهِ بقولِهم: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]، وعن يوسفَ ﷺ بقولِهِ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ [يوسف: 101]، وعن موسى ﷺ بقولِهِ: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس: 84]، وعن سليمانَ ﷺ بقولِهِ: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ [النّمل: 31]، وعن عيسى والحواريّينَ بقولِهم: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111][3].

وحدةُ الرِّسالة والمُرسَلين تتمثّل في الاسمِ العَلَم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 229، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 180.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 306.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 242.

وفي استعمالِ لفظ الإسلام موافقةٌ لمُعظَم المواطنِ السّابقةِ في السّورةِ، كقولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النّمل: 31]، وقولِه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النّمل: 38]، وقولِه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [النّمل: 42]، وقولِه: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النّمل: 44]، وقولِه: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النّمل: 81].

فائدةُ التَّعبير بالجارِّ والمجرور:

وحدةُ الأُمَّة بالإسلامِ وشَرفُها بالانضمامِ لعمومِ المسلمينَ

جاء التَّعبير بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، دون أنْ يُقالَ: (أنْ أكونَ مُسلمًا)؛ وذلك لأنَّ معناهُ: أنْ أكونَ مِنَ الفئةِ الَّتي يَصدُقُ عليها هذا الوصفُ، وهو الإسلامُ[1]، وفي ذلكَ تنويهٌ بهذهِ الأمَّةِ وتشريفٌ لها؛ إذ جعلَ اللّهُ رسولَهُ مُنخرطًا في سِلْكِها، وفردًا مِنْ أفرادِها[2]. يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

بلاغةُ عطفِ التّلاوة على الإسلام:

ثمرةُ الإسلامِ تلاوةُ القرآنِ بغرضِ الدَّعوةِ إلى الإسلام

قولُهُ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وفائدةُ هذا العطفِ: أنَّهُ بعدَ بيانِ ما أُمِرَ بهِ النَّبيُّ ﷺ في نفسِهِ - وهو أنْ يكونَ مِنَ المسلمينَ - أُتبِعَ ذلكَ ببيانِ ما تَعُمُّ فائدتُهُ غيرَهُ[3]، وهو تلاوةُ القرآنِ على النّاسِ، فمقتضى الإسلامِ تلاوةُ القرآن، الذي هو كنايةٌ عنِ الدَّعوة إلى الإسلام.

فائدةُ استعمالِ مفردةِ التِّلاوة مادّةً وصيغة:

تلاوةُ القرآنِ تشملُ اللّفظَ والسُّلوكَ الدّائمين

جاء استعمالُ مفردة التِّلاوة في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ دون مرادفاتها؛ لبيانِ أنَّ تلاوةَ القرآن فيها معنى الاتّباع والاقتفاء، فهي تلاوةٌ لفظيَّة لتحقيقِ تلاوةٍ سلوكيّة، وآثَرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 241 - 242.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 229.

النّظمُ التّعبيرَ بصيغةِ المضارعِ؛ للدّلالةِ على طلبِ استمرارِ التِّلاوةِ وتجدُّدِها[1]، وغرضُ ذلك تكريرُ دعوةِ النّاسِ وإرشادِهم، فيكونُ ذلكَ تنبيهًا على كفايتِهِ في الهدايةِ والإرشادِ، مِنْ غيرِ حاجةٍ إلى إظهارِ مُعجزةٍ أُخرى[2]. وقيل: أواظب على قراءته لتنكشفَ لي حقائقُهُ المخزونةُ في تضاعيفِهِ شيئًا فشيئًا[3]، وأظفرَ بما فيهِ مِنَ الخيرِ الكثيرِ، وتُفْتَقَ لي بهِ أكمامُ الأسرارِ والفُيوضاتِ الإلَهيَّةِ، وفي ذلكَ إيقاظٌ وتنبيهٌ لكلِّ مُسلمٍ مُفرِّطٍ في تلاوةِ القرآنِ الكريمِ.

بلاغةُ الكناية:

تـلاوةُ القـرآنِ تـلاوةُ دعـوةٍ وإرشاد

المقصودُ بالتّلاوةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ﴾ تلاوةُ الدَّعوةِ والإرشادِ إلى الحقِّ، فهو كنايةٌ عنِ الدَّعوةِ، وعليه: فمُتعلَّقُ فعلِ التِّلاوةِ محذوفٌ لظُهورِهِ، والتَّقديرُ: (وأنْ أتلوَهُ على النّاسِ)[4]، وفي هذا الحذفِ إيجازٌ واختصارٌ، وتعميمٌ للتِّلاوةِ، بحيثُ تشملُ المُسلمينَ والمشركينَ.

توجيه تخصيصِ التِّلاوةِ بالذِّكر:

التَّـنـبـيـه على عِظَمِ شأنِ تلاوةِ القرآنِ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ فعلَ التِّلاوة بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ﴾؛ لما فيه من التَّنبيه على عِظَمِ شأنِ تلاوةِ القرآنِ، ولذلكَ أُفرِدَتْ بالذِّكرِ معَ كونِها مِنْ جملةِ ما يشتملُ عليهِ الإسلامُ، وفي قَرْنِها بالأمرِ بالعبادةِ والإسلامِ مِنَ التَّنويهِ بشأنِها ما لا يَخفَى، فالتِّلاوةُ هي الفعل الذي لا يَعْجِزُ عنه أحدٌ منَ المسلمين، فكانتِ التّلاوة هي الحصنُ لهذه الأُمّة في استمرارِها في العلاقة مع هذا الكتاب الكريم.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالقرآنِ دونَ الكتابِ:

المناسبةُ معيارٌ في اختيارِ اللّفظِ دونَ مقارباتِه

آثَرَ النَّظمُ الكريم اختيارَ لفظ ﴿ٱلْقُرْءَانَۖ﴾ دونَ الكتابِ في

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 60.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 306.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بالتِّلاوةِ؛ فهي بمعنى القراءةِ، والقرآنُ في الأصلِ مصدرٌ مرادفٌ للقراءةِ، ثمَّ نُقِلَ مِنْ هذا المعنى المصدريِّ، وجُعِلَ اسمُ علَمٍ للكلامِ المُعجِزِ المُنزَلِ على النَّبيِّ ﷺ، مِنْ بابِ إطلاقِ المصدرِ على مفعولِهِ[1]. ولأنَّ القرآنَ علَمٌ على ما أُنزِلَ على النَّبيِّ ﷺ، فهو أرسخُ في التَّعريفِ بهِ مِنَ الكتابِ؛ لأنَّ العَلَمَ الأصليَّ أدخلُ في تعريفِ المُسمَّى مِنَ العَلَمِ بالغلَبةِ؛ فسواءٌ نُكِّرَ لفظُ القرآنِ أو عُرِّفَ باللّامِ، فهو عَلَمٌ على كتابِ الإسلامِ، فإنْ نُكِّرَ فتنكيرُهُ على أصلِ الأعلامِ، وإنْ عُرِّفَ فتعريفُهُ لِلَمْحِ الأصلِ قبلَ العلَميَّةَ؛ لأنَّ القرآنَ منقولٌ مِنَ المصدرِ المرادفِ للقراءةِ[2].

نوعُ الفاءِ وفائدتُها:

بعدَما ذُكِرَ الأمرُ بتلاوةِ القرآنِ على النّاسِ لدعوتِهم وإرشادِهم إلى الحقِّ كما هو أحدُ وجوهِ التَّفسيرِ، ناسبَ أن يُفرَّعَ عليهِ بفاءِ التَّفريعِ ما يقتضي انقسامَ النّاسِ إلى مُهتدٍ وضالٍّ، أي: مُنتفعٍ بتلاوةِ القرآنِ عليهِ، وغيرِ مُنتفعٍ[3]، والتَّقديرُ: (منهُم مَنِ اهتدَى، ومنهُم مَنْ ضلَّ)، وفي هذا التَّفريعِ ترغيبٌ في اتِّباعِ الحقِّ الواضحِ، وتحذيرٌ مِنْ سُلوكِ سبيلِ الضَّلالِ والإعراضِ.

ترغيبُ النّاسِ بالاهتداءِ بالمَتلوِّ وتحذيرُهم مِنَ الإعراضِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ:

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ لإفادةِ قوَّةِ الارتباطِ بينَ اهتداءِ الإنسانِ وضلالِهِ، وبينَ كونِ منفعتِهِ لهُ أو مَضرَّتِهِ عليهِ، وفي ذلكَ قَطْعٌ لدابرِ ظنِّ مَنْ يَظُنُّ خلافَ ذلكَ، وللتَّنبيهِ بالشَّرطِ على عمومِ الحُكمِ؛ فإنَّ عملَ أحدٍ لا يلحقُ نفعُهُ ولا ضَرُّهُ بغيرِهِ، إلّا ما

كلُّ إنسانٍ محاسبٌ على أعمالِهِ الاختياريَّةِ

(1) الزّرقانيّ، مناهل العرفان: 1/ 14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

خصَّهُ الدَّليلُ؛ فكان الشَّرطُ بيانًا لمآلاتِ الأفعال، وما يُصيب العامل من جزاءٍ، ففيه إشارةٌ إلى العدل الإلهيّ، وأنَّ الله تعالى لا يُحاسِب النّاسَ إلّا على أعمالِهم بإرادتِهم واختيارِهم.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

الحسابُ بعد ثبوتِ العملِ وإنجازه

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فمَنْ يَهْتَدِ)، و(ومَنْ يَضِلَّ)؛ لأنَّ الاهتداءَ والضَّلال يكونانِ في المستقبلِ بالنِّسبةِ لزمنِ التِّلاوةِ، لكنْ جاء التَّعبير بصيغةِ الماضي، فقيلَ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾؛ لإفادةِ أنَّ ترتُّبَهما على التِّلاوةِ أمرٌ مُتحقِّقٌ مُتيقَّنٌ؛ لأنَّ شأنَ النّاسِ عادةً أنْ يَنقسِموا في الحقِّ فريقينِ، وإخبارُ اللّهِ تعالى لا إخلافَ فيهِ، ولبيانِ أنَّ اللّه تعالى لا يُحاسب النّاسَ إلّا بعد تحقُّق أعمالِهم، وإنجازِ إراداتهم.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالاهتداءِ دونَ الإيمانِ:

الاهتداءُ عنوانٌ عريضٌ شاملٌ للأعمالِ التي تُدخلُ صاحبَها الجنَّة

اختيرَ في النَّظم لفظُ الهداية ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ دونَ الإيمان؛ فلم يقل: (فمَنْ آمنَ)؛ لأنَّ المقصودَ هو تحقيقُ الاهتداء، والإيمانُ هو جزءٌ منَ الاهتداء، فيدخل في الاهتداء الإيمانُ والعملُ الصّالح، والقولُ الطّيِّب، والدَّعوةُ إلى دين الله تعالى، وسائرُ الأعمال التي تُدخِلُ صاحبَها الجنَّة، فكانَ الاهتداءُ عنوانًا لهذه الأعمال، ولو ذُكِرَ الإيمانُ لأفاد بعضًا من ذلك.

نوعُ الفاءِ ووظيفتُها الارتباطيَّة:

الفاءُ لتقوية السّببيّة بينهما، وتوكيدِ التّرتّب

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ فاءُ جوابِ الشَّرطِ، وهي رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ بجملته، وغرضُها تقويةُ السَّببيَّةِ بينَهما، وتأكيدُ ترتُّبِ نفعِ المُهتدي على الاهتداءِ.

بلاغةُ الإطنابِ بالقصرِ:

الاهتداءُ بالغٌ المهتدي، غير ضارٍّ غيرَه

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فمَنِ اهتدَى فلنفسِهِ)، لكنْ أُطنِبَ بأسلوبِ القَصْرِ، فقيلَ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، وهو مِنْ قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ قصرَ قلبٍ؛ للرَّدِّ على مَنْ يَمُنُّ على النَّبيِّ

ﷺ بإسلامِهِ، ويَظنُّ أنَّ نَفْعَ إسلامِهِ راجعٌ إليهِ ﷺ، فكانَ القصرُ مُفيدًا أنَّ اهتداءَهُ مقصورٌ على تعلُّقِ اهتدائِهِ بمعنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: بفائدةِ نفسِهِ، لا يتجاوزُهُ إلى التَّعلُّقِ بفائدةِ غيرِهِ، والمعنى: فمَنِ اهتدَى باتِّباعِهِ إيّايَ فيما أنا بصَدَدِهِ مِنْ توحيدِ اللّهِ، والدُّخولِ في الإسلامِ، وتلاوةِ ما أُنزِلَ عليَّ مِنَ الوَحْيِ، فمنفعةُ اهتدائِهِ راجعةٌ إليهِ لا إلى الدّاعي[1]؛ لأنَّ فائدةَ الدّاعي وأجرَه ثابتةٌ عن التَّبليغِ، سواءٌ اهتدَى مَنِ اهتدَى، أم ضلَّ مَنْ ضلَّ.

بلاغةُ اختلافِ التَّقابلِ في الصّيغِ:

لا يأمنُ العاقلُ الفتنَ، ولا يأمن المؤمنُ المِحَن

اختلفت صيغةُ المقابلةُ بين صيغة فعلِ الشَّرط وجوابه في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، ولم تتوافقا، فلم يُقَلْ: (فمَنِ اهتدَى فإنَّما اهتدَى لنفسِهِ) بحيثُ يتوافقُ فِعْلا الشَّرطِ والجزاءِ في الماضويَّةِ؛ وذلك للدّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ فيما بقي من زمان المهتدي، فَفِعْلُ الشّرط جاء بالماضي لبيان التّحقُّق، وجوابُه جاء مضارعًا؛ للحَضِّ على العمل؛ أي: فإنَّما يتجدَّدُ نَفْعُ الاهتداءِ ويستمرُّ، وفي ذلكَ إشعارٌ بعِظَمِ غنيمةِ المُهتدي؛ فإنَّ الاهتداءَ يكونُ مرَّةً واحدةً، ثمَّ يَصونُهُ صاحبُهُ مِنَ الارتدادِ والنُّكوسِ على العَقِبِ، ففيه تحذيرٌ منَ الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ، وأنَّه لا يأمن أحدٌ على نفسِه.

براعةُ فنِّ الجِناسِ:

أعظمُ ما يجنيه المُهتدي الاهتداءُ نفسُه

في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ جناسٌ ناقصٌ بينَ ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ و﴿يَهْتَدِى﴾، وهو مِنَ المُحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ، وفائدتُهُ إظهارُ التَّشاكلِ والتَّلاؤمِ اللَّفظيِّ بينَ الألفاظِ المتجانسة، وفائدتُه في الآيةِ بيانُ فضيلةِ الاهتداء، وأنَّ أعظم ما يجنيه المُهتدي هو الاهتداءُ نفسُه، فهو أعظمُ مأمولٍ، وأنفعُ مطلوب.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389.

بلاغةُ اللّامِ ودلالتُها:

الاهتداءُ غِنًى لصاحبِهِ وكنزٌ دفينٌ لراجيه

اللّامُ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لبيانِ أنَّ غايةَ الاهتداء هي نفعُ المُهتدي نفسه، واللّام دالّةٌ على المِلْك، ففيه استعارةُ معنى النَّفع؛ فإنَّما يُملَكُ الشَّيءُ النّافعُ الَّذي يُدَّخرُ للنَّوائبِ[1]، وفي التَّعبيرِ بها هنا تنبيهٌ على أنَّ الاهتداءَ نِعْمةٌ وغِنًى لصاحبِهِ، وفي ذلكَ زيادةُ تحريضٍ للسّامعينَ على الاهتداءِ بهَدْيِ القرآنِ؛ رجاءَ النَّفْعِ والخيرِ.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ النَّفْسِ:

نَفْعُ الاهتداءِ راجعٌ للمُهتدي حقيقةً

جيءَ بلفظِ (النَّفْس) في قولِهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، ولم يُقَلْ: (فإنَّما يهتدي لهُ)؛ لبيانِ أنَّ منفعةَ الاهتداءِ راجعةٌ إلى المهتدي نفسِهِ حقيقةً، ولدفعِ توهُّمِ التَّجوُّزِ في الكلامِ؛ إذ لو قيلَ: (لهُ) لربَّما ظُنَّ أنَّ المنفعةَ راجعةٌ إلى مَنْ لهُ صِلَةٌ بهِ، كابنِهِ، أو زوجِهِ، أو أخيهِ، أو أحدِ أبويهِ، أو نحوِ ذلكَ، ولمّا كانت النَّفسُ أهمَّ ما يُرجى له الخيرُ من صاحبِها، ذَكَرَ النَّظمُ هذا اللَّفظَ لتحفيزِ المهتدي وتطمينه على نيلِ نفسِهِ تلك المنافعَ والخيرات.

بلاغةُ عطفِ القسيمِ على قسيمه:

ذِكْرُ الشَّقيِّ بعدَ السَّعيدِ ترهيبٌ بعد ترغيب

الواوُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، ونُكْتَةُ العطفِ: استكمالُ ذِكْرِ أفرادِ ما يتفرَّعُ على تلاوةِ القرآنِ مِن انقسامِ النّاسِ إلى مُهتدٍ وضالٍّ، وذلكَ جارٍ على عادةِ القرآنِ الكريمِ بتعقيبِ البِشارةِ بالنِّذارةِ، وبالعكسِ، وفيهِ زيادةُ تنويهٍ بشأنِ الاهتداءِ؛ لأنَّ بيانَ قُبْحِ الضَّلالِ وسوءِ عاقبتِهِ يزيدُ الاهتداءَ بَهاءً وجلالًا في أعيُنِ المُهتدينَ، ويدعوهم إلى التَّمسُّكِ بهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 419.

بلاغةُ استعمال مفردةِ الضَّلالة دونَ الكفرِ:

الضَّلالُ أعمُّ منَ الكفرِ، والكفرُ إحدى ثمراتِه وفروعِه

جاء استعمالُ مفردةِ الضَّلالِ دونَ الكفرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بمقابلةِ الاهتداءِ، فالضَّلال يدخلُ فيه كلُّ أنواعِ الكفرِ والسُّلوكِ المُؤدّي إلى الخُسران، ودخولِ النّيران، فكان هذا اللّفظُ أعمَّ من لفظ الكفر، ممّا أفاد التَّنبيهَ والتَّحذيرَ منه، فإنَّ الإنسانَ لا يبدأُ كافرًا، بل يبدأ بطريقِ الضَّلال لينتهيَ إلى أعظمِه وهو الكفر، فكان ذِكْرُ البداية أدلَّ على التَّحذيرِ من ذكر النِّهاية، والأعمّ أقوى من ذِكْر الأخصّ.

بلاغةُ فنِّ الطِّباقِ:

التَّنبيهُ على طريقَي الخيرِ والشَّرِّ

في الآيةِ طباقٌ بينَ فعلي ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ و﴿ضَلَّ﴾، وهو مِنَ المُحسِّناتِ المعنويَّةِ، وفائدتُهُ بيانُ حالينِ متقابلَينِ، وهما حالُ مُهتدٍ راسخٍ في اهتدائِه، وحالُ ضالٍّ غارقٍ في غَيِّهِ وضلالِه، والغرضُ مِنْ ذلكَ أنْ يتأمَّلَ النّاظرُ مآلَ كلٍّ مِنَ الحالينِ، ليختارَ ما فيه رُشْدُهُ ونَجاتُهُ.

بلاغةُ إيثارِ الإثبات على النَّفي:

ضلالُ الضّالِّ حُكمٌ حتميٌّ

جاء التَّعبيرُ عن إثباتِ الضّالِّ بقولِه تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾، دون النَّفي فلم يقلْ: (ومن لم يَهْتَدِ)؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ يدلُّ على ضلالِه بدلالةِ المطابقةِ، وقولَ: (ومن لم يَهْتدِ) يدلُّ عليه بدلالةِ الالتزامِ، والأوَّلُ - لما فيه مِنَ التَّصريحِ بضلالِه - أنسبُ بصُنعةِ التَّضادِّ بينَهُ وبينَ ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾، وأبلغُ في الذَّمِّ[1]، وأوجَزُ، كما أنَّ إثباتَ الضَّلال حُكمٌ حتميٌّ، بخلاف (من لم يهتد) فإنَّ الحُكم لم يتمحّض بعد.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

ارتباطُ الفاء بالجوابِ ارتباطُ السَّببِ بنتيجته

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أنْ يكونَ جوابَ الشَّرطِ، بتقديرِ عائدٍ على اسمِ الشَّرطِ، أي: مِنَ المُنذرينَ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 463.

لهُ[1]، والفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، وفائدتُها زيادةُ رَبْطِ الجزاءِ بالشَّرطِ، وتقويةُ السَّببيَّةِ بينَهما. ويحتملُ أنْ يكونَ الجوابُ محذوفًا، والتَّقديرُ: فوبالُ ضلالِهِ عليهِ[2]، أو: فإنَّما يَضِلُّ عليها، وأُقيمَ ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ مُقامَهُ؛ لكونِهِ كالعِلَّةِ لهُ، فالفاءُ للتَّعليلِ[3].

نُكْتَةُ ذكرِ فعلِ القولِ:

إنذارُ اللهِ حَريٌّ بتلقّيهِ، جديرٌ بتحرّيه

ذُكر فعلُ القولِ ﴿فَقُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾، ولم يُقَلْ: (ومَنْ ضلَّ فإنَّما) بحذفِهِ؛ لتأكيدِ أنَّ حظَّ النَّبيِّ ﷺ مِنْ دعوةِ المُعرضينَ الضّالّينَ أنْ يُبلِّغَهم الإنذارَ، فلا يطمَعوا بإعراضِهم أن يُلِحَّ عليهم؛ ليَقْبَلوا دعوتَهُ[4]، وافتتاحُ الجملةِ بالأمرِ بالقولِ فيهِ تنبيهٌ على أنَّهُ تبليغٌ عن اللهِ تعالى، فهو جديرٌ بالتَّلقّي بأُذُنٍ واعيةٍ.

نُكْتَةُ حذفِ المَقولِ لهُ:

إطلاقُ الإعلامِ بالإنذارِ خيرٌ منَ التّقييدِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فقلْ لهُ) برِعايةِ لفظِ (مَنْ)، أو (فقلْ لهُم) برِعايةِ معناها، لكنْ حُذِفَ المَقولُ لهُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ ليكونَ القولُ مطلقًا عامًّا للضّالِّ وغيرِهِ، أي: فقلْ للضّالِّ ولغيرِهِ ممَّن هو على شفا جُرُفٍ: إنَّما أنا مِنَ المُنذرينَ؛ ليظهرَ للجميعِ براءةُ ساحتِكَ مِنَ التَّقصيرِ في أداءِ واجبِ الدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى، وليكون قولُك مطلقًا غيرَ مقيّدٍ بضالٍ دون سواه.

نوعُ القَصْرِ وفائدتُه:

وبالُ الضَّلالِ مختصٌّ بصاحبِهِ، قاصرٌ عن بلوغِ غيرِه

كانَ بعضُ المشركينَ يُظهرُ أنَّهُ يَغيظُ النَّبيَّ ﷺ بالبقاءِ على الكفرِ، فجيءَ بالقصرِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾، وهو مِنْ قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ قصرَ قلبٍ؛ لإفادةِ أنَّ ضلالَهُ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 647.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 647.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 463.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

مقصورٌ على التَّعلُّقِ بمَضَرَّةِ نفسِه، لا يتجاوزُهُ إلى التَّعلُّقِ بمَضَرَّةِ النَّبيِّ ﷺ[1]؛ لأنَّهُ ما على الرَّسولِ إلّا البلاغُ، وقد بلَّغَ ﷺ، وفي ذلك دفعٌ لِما عسى أن يتوهَّمَ بعضُهم مِنْ حرصِهِ ﷺ على هدايتِهم أنَّهُ يرجو بذلكَ دفعَ ضُرٍّ عن نفسِهِ.

نُكْتَةُ تقديمِ المسند إليه:

قُدِّمَ ﴿أَنَا﴾ على ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ لأنَّ الأصلَ تقديمُ المُسنَدِ إليهِ إذا لم يكنْ هناكَ مُقتَضٍ لتأخيرِهِ، ولأنَّ المقصورَ عليهِ هو ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، وهو يُؤخَّرُ في (إنَّما)[2].

الأصلُ تقديمُ المُسنَدِ إليهِ إذا لم يكنْ هناكَ مُقتَضٍ لتأخيرِهِ

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ للتَّبعيضِ، فيُفيدُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعضُ المُرسَلينَ المُنذِرينَ، وفردٌ مِنْ أفرادِهم، وسنَّة هؤلاء المُرسلين أن يكونوا مُبَلِّغين ما أمرهم ربُّهم به، والرَّسول كذلك، فهو مبلِّغ عن ربِّه بشيرًا ونذيرًا.

النَّبيُّ ﷺ بعضُ المُرسَلينَ المُنذِرينَ

نُكْتَةُ إيثارِ الجمعِ على الإفرادِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الإتيانَ بالجمع دون الإفراد في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ فلم يقل: (إنَّما أنا مُنذِرٌ)؛ لبيانِ انخراطِه في الثُّلَّة النّبويّة العظيمة؛ إذ معناهُ: إنَّما أنا مِنَ الفئةِ الَّتي يَصدُقُ عليها هذا الوصفُ، وهو النِّذارةُ، وفي ذلكَ بيانُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ واحدٌ مِنَ الرُّسُلِ، وسُنَّتُهُ سُنَّتُهم، وهي التَّبليغُ[3]، فكما لم يَلْحَقْهم ضُرٌّ بإعراضِ المُكذِّبينَ لهُم فهو كذلكَ، مع ما في ذلك من مراعاة فواصلِ الآياتِ.

الإنذارُ شأنُ جميعِ المُرسَلينَ وسُنَّةُ كلِّ النَّبيّين

بلاغةُ فنِّ الاحتباكِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ

حَذْفُ البِشارةِ لحضورِ أصلِها، وذِكرُ النِّذارةِ للتَّنبيهِ على وبالِ مخالفته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 309.
(2) التّفتازانيّ، المختصر، ص: 348.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ إيجازٌ بديعٌ يُسمَّى الاحتباكَ، فقد حُذِفَ مِنَ الجملةِ الأولى ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الثّانيةِ، وحُذِفَ مِنَ الثّانيةِ ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الأولى، فذِكرُ النِّذارةِ يقتضي إثباتَ البِشارةِ، وذِكْرُ النَّفْعِ يقتضي إثباتَ الضُّرِّ، والتَّقديرُ: (فمَن اهتدَى فإنَّما يهتدي لنفسِهِ، وقلْ: إنَّما أنا مِنَ المُبشِّرينَ، ومَنْ ضلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها، وقلْ: إنَّما أنا مِنَ المُنذِرينَ).

نظمُ التّراكيبِ والمعاني تابعٌ لدلالةِ السّياقِ والمعاني

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ:

تشابهَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ معَ قولِهِ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس: 108]، وقولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الزّمر: 41]. فقد قُصِرَ الاهتداءُ على المهتدي في آيتَيْ يونسَ والنَّملِ، وتُرِكَ في آيةِ الزُّمَرِ؛ لأنَّ آيتَيْ يونسَ والنَّملِ فيهما أمرٌ بمخاطَبةِ المشركينَ، فكانَ المقامُ فيهما مناسبًا لبيانِ أنَّ فائدةَ اهتدائِهم لا تعودُ إلّا لأنفُسِهم، وليسَ للنَّبيِّ ﷺ منفعةٌ مِن اهتدائِهم، خلافًا لآيةِ الزُّمَرِ؛ فإنَّها خطابٌ موجَّهٌ مِنَ اللّهِ إلى رسولِهِ ﷺ، وليسَ فيها حالُ مَنْ يُنزَّلُ منزلةَ مَنْ يَمُنُّ على النَّبيِّ ﷺ باهتدائِهِ.

أمّا صيغةُ القصرِ في قولِهِ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يونس: 108] فهي لتنزيلِ الرَّسولِ ﷺ في أَسَفِهِ على ضلالِهم المُفضي بهِم إلى العذابِ منزلةَ مَنْ يَعودُ عليهِ ضرٌّ مِنْ ضلالِهم، فخوطِبَ بصيغةِ القصرِ، وهو قصرُ قلبٍ في الآياتِ الثَّلاثِ؛ فإنَّ قولَهُ هنا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ في معنى قولِهِ في الآيتينِ: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يونس: 108][1]، كما بُيِّنَ في نُكتةِ الاحتباكِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 22.

فائدةُ العطفِ ودلالته:

القيامُ بحقِّ النَّذارةِ موجبٌ للحمدِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾، وفائدةُ هذا العطفِ: الحثُّ على الحمدِ بعدَ ذكرِ ما وفَّقَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ مِنَ القيامِ بأداءِ الرِّسالةِ وبالإنذارِ[1]، فدلَّ على أنَّ القيامَ بحقِّ النّذارةِ موجبٌ للحمد.

نُكْتَةُ تكرارِ فعلِ القولِ:

من فوائد التَّكرار العنايةُ بالمذكورِ والتَّنبيه على أهميّته

آثرَ النَّظمُ الكريم تكرارَ فعلِ الأمر (قل) دون الاكتفاءِ بدلالة العطفِ على الجملة السّابقة: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ وذلك لإظهارِ مزيدِ العنايةِ بمضمونِ هذا المَقولِ، والتَّنبيهِ على أنَّهُ خَليقٌ بأنْ يُتلَقَّى بالاهتمامِ مِنَ السّامعِ، ولذلكَ جيءَ بهِ في صورةِ كلامٍ مُستقلٍّ عن سابقِهِ، ولو كانَ مِنْ جملةِ المَقولِ السّابقِ لربَّما ظنَّ السّامعُ أنَّهُ تابعٌ لهُ، ومِنْ تتمَّتِهِ؛ فلم يلتفتْ إليهِ، كما أنَّ في التَّصريحِ بالقولِ تعليمًا للخَلْقِ أنْ يحمدوا اللهَ تعالى؛ إذ قُدوتُهم في ذلكَ النَّبيُّ ﷺ.

بلاغةُ حذفِ المَقولِ لهُ:

شأنُ الحامدِ إظهارُ المحامدِ

آثرَ النَّظمُ الكريم حذفَ المقولِ له، فلم يقل: (فقلْ لهم) في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ ليكونَ القولُ مطلَقًا شاملًا لكلِّ النّاسِ، أي: فقلْ لهؤلاءِ ولغيرِهم: الحمدُ للهِ، وليكون الاقتداءُ عامًّا لكلِّ مَن يصلح أن يقع منه الحمد، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّ مِنْ شأنِ الحامدِ إفشاءَ حمدِ اللهِ تعالى وإظهارَهُ والإكثارَ منهُ، بحيثُ يتَّصلُ بسمعِ كلِّ مَنْ سمعَ الخطابَ؛ ليكونَ في ذلكَ تحدُّثٌ بنعمةِ اللهِ مِنْ غيرِ كِبْرٍ ولا بَطَرٍ، وابتهاجٌ بها، وهو أدعَى لطلبِ المزيدِ مِنَ المُنعِمِ.

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّةِ:

حمدُ اللهِ دائمٌ في لسانِ العالِم

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على دوامِ الحمدِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 576.

وثباتِه[1]، فحمدُ اللهِ تعالى لا ينقطعُ؛ لأنَّ إحسانَهُ سبحانَهُ لا ينقطعُ، ولو أنَّ العبدَ قضَى عُمُرَهُ كلَّهُ في حمدِ اللهِ تعالى على نِعَمِهِ ما وفّاهُ حقَّ حمدِهِ ولا أقلَّ مِنْ ذلكَ.

نوعُ التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾:

جميعُ أفرادِ المحامدِ راسخةٌ في صدرِ الحامد

تعريفُ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للجنسِ، ويلزمُ منهُ معنى الاستغراقِ؛ لأنَّ الحُكمَ باختصاصِ جنسِ الحمدِ بهِ تعالى - لوجودِ لامِ تعريفِ الجنسِ في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، ولامِ الاختصاصِ في ﴿لِلَّهِ﴾ - يستلزمُ انحصارَ أفرادِ الحمدِ في التَّعلُّقِ باللهِ سبحانَهُ؛ لأنَّهُ إذا اختصَّ الجنسُ اختصَّتْ أفرادُهُ[2]، والمعنى: جنسُ الحمدِ للهِ تعالى، ويلزمُ منهُ أنَّ جميعَ أفرادِ المحامدِ لهُ جلَّ ذكرُهُ.

غرضُ تقديمِ المسندُ إليه:

النِّعَمُ تُتلقَّى منَ العبدِ، ودوامُها يبقى بالحمدِ

قُدِّم ذِكْر ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ على ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ حمدٍ؛ إذ هو تَعْدادٌ لنِعَمٍ جليلةٍ تستوجبُ الحمدَ، وهي التَّوحيدُ، والإسلامُ، وتلاوةُ القرآنِ، ولو أُخِّرَ لفظُ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لأخلَّ بالاهتمامِ، وأهمّيَّةُ الحمدِ عارضةٌ، وأهمّيَّةُ ذكرِ اللهِ ذاتيَّةٌ، والأهمّيَّةُ العارضةُ تُقدَّمُ على الأهمّيَّةِ الذّاتيَّةِ؛ لأنَّها أمرٌ يقتضيهِ المقامُ والحالُ، ولمّا تعلَّقَ الحمدُ باسمِ اللهِ تعالى، كانَ في الاهتمامِ بهِ اهتمامٌ بشؤونِ اللهِ ﷻ[3].

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

الحمدُ استحقاقٌ واجبٌ، واختصاصٌ ثابت للمتعالي سبحانه

الظّاهرُ أنَّ اللّامَ في قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختصاصِ، فتفيدُ اختصاصَ الحمدِ باللهِ تعالى، وفيها تنبيهٌ للعبدِ على ضرورةِ نسبةِ النِّعَمِ للمُنعِمِ بها، وصَرْفِ الحمدِ لمُستحِقِّهِ، فذلكَ مِنْ كمالِ الشُّكرِ، فالنِّعَمُ كلّها - ومنها النِّعَمُ المذكورةُ هنا - فَيْضٌ مَحْضٌ مِنْ فُيوضاتِ رحمتِهِ سبحانَهُ وإحسانِهِ، وليسَ لغيرِهِ سبحانَهُ منها قِطْميرٌ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 158.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 159 - 160.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 163.

فائدةُ استعمالِ لفظِ الجلالةِ:

لـفـظُ الـجـلالـةِ دالٌّ عـلـى جميع الأسماء والصّفات

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسْنى في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لكونِهِ دالًّا على جميعِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ والجمالِ، وجامعًا لكلِّ الصّفات والأسماء، ولأنَّهُ قد تقدَّمَ ذكرُ العبادةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، ولفظُ الجلالةِ أنسبُ بها؛ إذِ اللّهُ سبحانَهُ هو المعبودُ بحقٍّ.

فائدةُ الاستئنافِ:

تـحـقُّـقُ الـوعـيـدِ مـقـطـوعٌ بـهِ، مدفوعٌ خلافه

قولُهُ تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ داخلٌ في مَقولِ القولِ، وقد جيءِ بهِ مستأنفًا؛ للاحتراسِ ممّا يتوهَّمُهُ الكفّارُ حينَ يسمعونَ آياتِ تَبرُّؤِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ معرفةِ الغيبِ، وقصرِ مقامِ الرِّسالةِ على الدَّعوةِ إلى الحقِّ – مِنْ أنَّ الوعيدَ بالعذابِ لا يتحقَّقُ، فخُتِمَ الكلامُ ببيانِ أنَّ اللّهَ لا يُخلِفُ وعدَهُ[1]، وسيريهم آياته التي وعدهم بها.

دلالةُ استعمالِ السّينِ:

مجيءُ المتُوعَّدِ بهِ دانٍ قريبٌ

السّينُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مُؤذِنةٌ بأنَّ هذهِ الإراءةَ قريبةٌ[2]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على وقوعِها لا محالةَ، والمعنى: سَيُريكم البتَّةَ في الدُّنيا آياتِهِ الباهرةَ التي نطقَ بها القرآنُ[3]، وفي السّينِ أيضًا إشارةٌ إلى فتحِ بابِ التَّوبةِ والإمهالِ، وأنَّهُ ما يزالُ أمامَهم فُرْصةٌ؛ ليتفكَّروا ويُذعِنوا للحقِّ قبلَ أنْ يَحيقَ بهِم ما كانوا بهِ يُكذِّبونَ ويستهزؤونَ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

بيانُ دُنوِّ وقوعِ الإراءة والعرفان

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾؛ لأنَّ الإراءةَ والمعرفةَ أمرانِ حاصلانِ في المستقبلِ، والمضارعُ يدلُّ على المستقبلِ إنْ كانَتْ قرينةٌ، والقرينةُ هنا هي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 58.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 58.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 307.

السّينُ في ﴿سَيُرِيكُمْ﴾، فكان التَّعبيرُ بصيغة المضارع الدّالّ على المستقبل؛ للإيماءِ إلى الوعيد المُكتنَز في بداية وقوع الفعل المضارع، فاكتسى بزمن القُرب الشَّديد، كأنَّه قيل: إنّ الإراءة قريبةٌ، وبدايتَها في لحظات الفعل القادمة.

غرضُ الإخبارِ بإراءةِ الآياتِ:

قَـزعُ أسماعِ المشركينَ بالوعيدِ، والاستعلاءُ عليهم بالتَّهديد

في قولِه تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ تهديدٌ للمعانِدينَ بما سيُريهم اللّهُ مِنْ آياتِه الَّتي تُلجِئُهم إلى المعرفةِ والإقرارِ بأنَّها آياتُ اللّهِ، وذلكَ حينَ لا تنفعُهم المعرفةُ[1]، وفي هذا التَّهديدِ تحريكٌ لسِلْسِلةِ الطّاعةِ والإنابةِ، وكَسْرٌ لسَوْرةِ الجامحِ الأَبيِّ منهُم، واستنزالٌ لطائرِ كِبْرِهم وعنادِهم.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ الآياتِ:

وقـوعُ الآيـاتِ علامةُ الصّـدقِ وأمارةُ الحقِّ

جاء التَّعبيرُ عنِ المُتوعَّدِ به في قولِه تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ بالآياتِ؛ إشارةً إلى أنَّه سيحِلُّ بهم ما يكونُ علامةً على تصديقِ ما أخبرَهم به الرَّسولُ ﷺ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ للمشركينَ، وتنديمٌ لهُم حيثُ فوَّتوا النَّجاةَ على أنفُسِهم.

فائدةُ جمعِ لفظِ الآياتِ:

الآياتُ مُتعدِّدةٌ مُتنوِّعةٌ لزيادةِ التَّهديدِ والوعيدِ

جُمِع لفظُ الآياتِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ للإشارةِ إلى كثرةِ الآياتِ وتنوُّعِها وتعدُّدِها؛ فالمرادُ بها - إنْ كانَ الخطابُ للمُكذِّبينَ في عهدِ النُّبوَّةِ كما هو الظّاهرُ - الدُّخانُ وما حلَّ بهم مِنْ نِقَمِ اللّهِ تعالى، أو خروجُ الدّابَّةِ وسائرُ أشراطِ السّاعةِ، إنْ كانَ الخطابُ لجنسِ النّاسِ، لا لمَنْ في عهدِ النُّبوَّةِ[3].

كما أنَّ في التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ زيادةَ تخويفٍ وتهديدٍ للمعانِدينَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 390، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 277.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 58.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 249.

الجاحدينَ بكثرةِ ما سَيَرَوْنَ، وفَتٌّ مِنْ عَضُدِهم، وفيهِ كذلكَ إشارةٌ إلى تكذيبِهم بآياتٍ كثيرةٍ، وفي ذلكَ توبيخٌ لهُم، وتقبيحٌ لحالِهم؛ إذ يَصدُقُ عليهِم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: 101].

بلاغةُ إضافةِ لفظِ (آيات) إلى الضّمير:

عَظَمةُ الآياتِ تعظُمُ في القلوبِ وتكبُر في الصُّدور

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الآياتِ وتفخيمِها، ففيه بَثٌّ للرُّعْبِ في قلوبِ المعانِدينَ المُكذِّبينَ؛ لعلَّهم يَرْعَوونَ عمّا هم فيهِ، وينزجرونَ عن غَيِّهم وضلالِهم، عند معرفةِ أنَّ هذه الآياتِ هي آياتُ العظيمِ جلَّ في علاه، وقد تناغمَتْ هذهِ الإضافةُ الجليلةُ في هذا الموضعِ معَ إضافاتٍ في مواضعَ سابقةٍ في السّورةِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ [النّمل: 83 - 84].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾:

سُرعةُ تحقُّقِ المعرفةِ عَقِبَ وقوعِ الإراءة

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وفائدةُ العطفِ بها التَّنبيهُ على ترتُّبِ معرفةِ الآياتِ على إراءتِها، وإيذانٌ بسُرعةِ حصولِ المعرفةِ بعدَ تحقُّقِ الإراءةِ، ولا يَخفَى ما في ذلكَ مِنَ الغَمْزِ في عُقْدةِ رأيِ المُكذِّبينَ؛ إذ يُنكِرونَ الآياتِ على كثرتِها وتنوُّعِها، وإذا جاءَتْ ساعةُ الحقيقةِ وعاينوها، هُرِعوا إلى ساحةِ التَّصديقِ، وهذا دالٌّ على أنَّ أصلَ التَّصديقِ حاصلٌ عندهم، وما هم إلّا مكذِّبون مُراوغون.

أعمالُ المشركينَ في ميزانِ الحقِّ تستوجبُ الحسابَ ولو بعد حين

بلاغةُ جملةِ التَّذييلِ:

الظّاهرُ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ليسَ داخلًا في جملةِ المَقولِ، بل هو كلامٌ مَسوقٌ مِنْ جهتِهِ تعالى بطريقِ

التَّذييلِ؛ لتقريرِ ما قبلَهُ[1]، ووجهُ التَّقريرِ: أنَّ كونَهُ تعالى غيرَ غافلٍ عن أيِّ عملٍ، يعني: أنَّهُ يُجازي كلَّ عاملٍ على عملِهِ، فيُؤكِّدُ كونَ أعمالِ المشركينَ تستوجبُ ما سيرونَهُ مِنَ الآياتِ، ففيها تطمينٌ لقلبِ النّبيّ ﷺ، وقلوبِ المؤمنين، من أنَّ ما سيقع منَ الظّالمين في الدُّنيا ما هو إلّا بإذن اللّه تعالى، وأنَّه ليس بغافلٍ ولا تاركٍ أعمالهم تجري كما يحسبون. وجوَّزَ ابنُ عاشور في هذا التَّذييلِ أنْ يكونَ مِنْ تمامِ ما أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بأنْ يقولَهُ للمشركينَ[2]، ويَرِدُ عليهِ أنَّهُ لو كانَ كذلكَ لقيلَ: (وما ربُّكم)، أو (وما ربّي).

بلاغةُ استعمالِ أداةِ النَّفي (ما):

(ما) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ نافيةٌ، وقد استُعملت هذه الأداة دون غيرها من أدوات النّفي لإفادة العموم، أي: نفيُ أيِّ غفلةٍ قد تُلْمَح في ذِهن أحد.

نُكْتةُ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

وَعْـدُ المطيعِ ووعيدُ العاصي مِنْ آثارِ التَّربيةِ الرّبّانيّة

عُبِّرَ بعنوانِ الرُّبوبيَّة في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ لفظَ الرَّبِّ يدلُّ على التَّربية والإحسانِ والرَّحمةِ، ومِنْ وجوهِ الإحسانِ للعبادِ إصلاحُهم بالتَّكاليفِ، وحثُّهم على الالتزامِ بها؛ لذَوْدِهم عن حياضِ العذابِ الأليم، فلَفْظُ الرَّبِّ أنسبُ بمقامِ الآيةِ الَّذي امتزجَ فيهِ وعدُ المؤمنينَ بوعيدِ المُكذِّبينَ المعاندينَ، الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ.

غرضُ إضافةِ لفظ (رب) إلى ضمير الخطاب:

تشريفُ المخاطَبِ بإثباتِ عبوديّته

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ الخطابِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإشعارِهِ بمعيَّةِ اللّهِ تعالى وإحسانِهِ، وتشريفِهِ بكونِهِ مربوبًا للّهِ تعالى، فالعبوديَّةُ للّهِ تعالى شَرَفٌ وعِزَّةٌ للعبدِ، وليستْ كعبوديَّةِ العبدِ للعبدِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 307.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 59.

عِلَّةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

عدمُ غفلتِهِ تعالى جاريةٌ مَجرى الأمثالِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وما هو بغافلٍ عمّا تعملونَ)؛ لرجوعِ الضَّميرِ إلى لفظِ الجلالةِ المذكورِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لِما في اسمِ الرَّبِّ مِنَ الدّلالةِ على الاعتناءِ بصلاحِ المربوبينَ كما تقدَّمَ، ولأنَّ الجملةَ تذييلٌ، والإظهارُ يجعلُها مُستقلَّةً بنفسِها، فتجري مَجْرَى الأمثالِ والحِكَمِ، بخلافِ ما لو قيلَ: (وما هو)؛ فإنَّها لا تكونُ مُستقلَّةً؛ لارتباطِ الضَّميرِ بمرجعِهِ السّابقِ.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

توكيدُ عدمِ غفلتِهِ سبحانَهُ عن أعمالِ العبادِ

الباءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ واقعةٌ في حيِّزِ خبرِ (ما)، جاءت لتوكيدِ عدمِ غفلتِهِ سبحانَهُ عن أعمالِ العبادِ، وبيانِ أنَّهُ أمرٌ مُحقَّقٌ، لا امتراءَ فيه.

بلاغةُ استعمالِ (عن):

أعمالُ العبادِ في كتابٍ يُحصي الصّغائرَ والكبائرَ

حرفُ الجرِّ (عن) في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ للمجاوزةِ، وفائدةُ استعماله المبالغةُ في بيانِ عدمِ غفلتِهِ جلَّ ذِكرُهُ عن أعمالِ العبادِ، وإفادةِ أنَّ أعمالَهم لا تَفوتُ علمَهُ سبحانَهُ، والمعنى: وما ربُّكَ بغافلٍ مُتجاوزًا ما تعملونَهُ دونَ اطِّلاعٍ عليهِ، وإحصاءٍ لهُ، بل هو محصٍ له، جامعُه في كتابٍ لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرة.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

علمُهُ تعالى مُحيطٌ بجميعِ أعمالِ العبادِ

الظّاهرُ أنَّ (ما) في قولِ الباري جلَّ ذكرُهُ: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ موصولةٌ، والتَّقديرُ: (عن الذي تعملونَهُ)، وقد جيءَ بالموصولِ لإفادةِ العمومِ، وأنَّهُ سبحانَهُ لا يغفلُ عن شيءٍ مِنْ أعمالِ العبادِ، كبيرًا كانَ أو صغيرًا، ظاهرًا كان أو باطنًا، وفي ذلك زيادةُ تهديدٍ ووعيدٍ، وإيقاظٌ لِمَنْ قد تُحدِّثُهُ نفسُهُ أنَّ اللهَ لا يَطَّلِعُ على خفيّاتِ أعمالِهِ. ويحتملُ أنْ تكونَ (ما) مصدريَّةً، والمعنى: (عن أعمالِكم).

سِرُّ تعليقِ وصفِ الغافلِ بالعملِ:

من أحاط علمُه بالأعمالِ فإحاطتُه بالذّوات أولى

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ دالٌّ على أنَّهُ سبحانَهُ يُعطي كلَّ عاملٍ جزاءَ عملِهِ، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، ولذلكَ عُلِّقَ وصفُ الغافلِ بالعملِ، ولم يُعلَّقْ بالذَّواتِ، فلم يُقَلْ: (بغافلٍ عنكم)؛ إيماءً إلى أنَّ على العملِ جزاءً[1]، وأنَّ العملَ هو محلُّ الحساب والجزاء، وللتَّنبيه بالأدنى على الأعلى، فإذا كان لا يغفل عن أعمالكم سبحانه، فكيف يغفل عنكم.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ العملِ دونَ الفعلِ:

مقامُ الجزاءِ تُلائمه أعمالُ القصْدِ

اختيرَ لفظُ العملِ دونَ الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ العملَ يدلُّ على المثابرةِ على الشَّيءِ، ويكونُ بقصدٍ، ففي التَّعبيرِ بهِ دلالةٌ على أنَّ ما يُجازي اللّٰهُ تعالى عليهِ عبادَهُ مِنَ الأعمالِ هو ما صدرَ بقصدٍ عنهُم، لا سيَّما إنْ تكرَّرَ منهُم، وأُشربوا في قلوبِهم حُبَّهُ والمثابرةَ عليهِ، كما هو شأنُ الكفرةِ معَ الكفرِ والتَّكذيبِ بالآياتِ والاستهزاءِ بها، وأمّا الفعلُ فيكونُ بقصدٍ وغيرِ قصدٍ، فلا يلائمُ المقامَ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ جزاء.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قراءةُ الخطابِ وعدٌ ووعيدٌ، وقراءةُ الغَيبةِ وعيدٌ شديد

قرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ وأبو جعفرٍ ويعقوبُ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالخطابِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالغَيبةِ[2]، أمّا على قراءةِ الخطابِ فيكونُ في الكلامِ وعدٌ ووعيدٌ، والمعنى: وما ربُّكَ بغافلٍ عمّا تعملُ أنتَ مِنَ الحسناتِ، وما تعملونَ أنتم أيُّها الكفرةُ مِنَ السَّيِّئاتِ، فيُجازي كلًّا منكم بعملِهِ، وتخصيصُ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾ بهِ ﷺ، وتعميمُهُ في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ للكفرةِ تغليبٌ. وأمّا على قراءةِ الغَيبةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فالكلامُ وعيدٌ مَحْضٌ، والمعنى: وما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 196.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 263.

ربُّكَ بغافلٍ عمّا يعملُ الكفرةُ، فسيُعذِّبُهم البتَّةَ، فلا يظنّوا أنَّ تأخيرَ عذابِهم لغفلتِهِ عن أعمالِهم[1].

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، والمعنى: وما ربُّكَ بغافلٍ عمّا تعملونَ من أعمالِكم الصّادرة عنكم باستمرارٍ، فتفيدُ الجملةُ مبالغةً في إحاطةِ علمِهِ ﷻ بأعمالِهم، وأنَّهم لا يُحْدِثونَ عملًا إلّا وعِلْمُ اللهِ تعالى محيطٌ بهِ، فلا يَخفَى على اللهِ منهُم شيءٌ، ولا تشغلُهُ كثرةُ أعمالِهم، بل قليلُ عملِهم وكثيرُهُ سواءٌ في علمِهِ تعالى.

كثيرُ العملِ وقليلُهُ سواءٌ في علمِ اللهِ تعالى

نُكْتَةُ حذفِ متعلّقِ الفعل:

حُذف متعلّق فعلِ العمل في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدّلالةِ على العموم، وما ربُّكَ بغافلٍ عمّا تعملونَ من جميع أعمالِكم فتشمل الخفيَّ والظّاهر.

حذفُ المُتعلّق يدلُّ على العموم

مناسبةُ الختامِ لفاتحة السّورة:

قال تعالى في فاتحةِ السّورةِ: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾ [النمل: 1 - 5]، وقالَ في خاتمتِها: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾. ويُلحَظُ أنَّ آخرَ السّورةِ فيهِ تفخيمٌ لشأنِ القرآنِ، وتقسيمٌ للنّاسِ في شأنِهِ إلى مُهتدٍ وضالٍّ، فعانقَ أوَّلَها المشتملَ على ذلكَ[2]،

اشتمالُ فاتحةِ السّورةِ وخاتمتِها على التَّنويهِ بشأنِ القرآنِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 307، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 249.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 231.

والتقَى الافتتاحُ والاختتامُ على أمرٍ قد قُدِرَ، فجَلَّ كلامُ علّامِ الغيوبِ وخالقِ القوى والقُدَرِ.

❁ الفروق المعجميَّة:

المعرفةُ والعِلْمُ:

المعرفةُ أخصُّ مِنَ العِلمِ؛ لأنَّها عِلمٌ بعينِ الشَّيءِ مُفصَّلًا عمّا سواهُ، والعِلمَ يكونُ مُجمَلًا ومُفصَّلًا، ويتبيَّنُ الفرقُ بينَهما في الموضعِ الذي ترد فيه، فقولُكَ مثلًا: علمتُ أنَّ لزيدٍ ولدًا، وقولُكَ: عرفتُ أنَّ لزيدٍ ولدًا، بمعنًى واحدٍ[1]، كما أنَّ المعرفةَ يقابلُها الجحودُ، والعلمُ يقابلُهُ الجهلُ، وقد عُبِّرَ بالمعرفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾؛ لأنَّ المرادَ أنَّ الكافرينَ حينَ يرونَ آياتِ اللّهِ الَّتي كانوا يُكذِّبونَ بها يعلمونَ أعيانَها عِلْمًا مُفصَّلًا، ويُدركونَ حقائقَها، ويُقِرّونَ بكونِها آياتٍ للّهِ، ولا يستطيعونَ جحودَها، وهي أنسبُ بما في لفظِ الآياتِ مِنْ معنى الدّلالةِ والعلامةِ[2].

المعرفةُ أخصُّ مِنَ العِلْمِ لاختصاصِها بالتَّفصيلِ والعِلْمُ بالإجمالِ

التِّلاوةُ والقراءةُ:

التِّلاوةَ لا تكونُ إلّا لكلمتينِ فصاعدًا، والقراءةَ تكونُ للكلمةِ الواحدةِ، يقالُ: قرأَ فلانٌ اسمَهُ، ولا يقالُ: تلا اسمَهُ؛ لأنَّ التِّلاوةَ في الأصلِ إتباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، فتكونُ في الكلماتِ يُتبَعُ بعضُها بعضًا، ولا تكونُ في الكلمةِ الواحدةِ[3]، كما أنَّ التِّلاوةَ تختصُّ بكُتُبِ اللّهِ المُنزَلةِ، فهي أخصُّ مِنَ القراءةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليسَ كلُّ قراءةٍ تلاوةً[4].

التِّلاوةُ اختصَّت بتلاوة الكتب المُنزلة، بخلاف القراءة فهي أعمّ

وقد اختيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ لفظُ التِّلاوةِ دونَ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 500.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 58.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140.
(4) الرّاغب، المفردات: (تلو).

القراءةِ؛ لأنَّهُ يدلُّ على المواظبةِ وتكشُّفِ الحقائقِ والمعاني للتّالي شيئًا فشيئًا؛ لأنَّهُ موضوعٌ لإتباعِ اللَّفظِ الثاني للأوَّلِ شيئًا فشيئًا، بخلافِ لفظِ القراءةِ؛ فإنَّهُ موضوعٌ لجمعِ الحروفِ والكلماتِ غيرَ ملحوظٍ في وضعِها معنى الإتباعِ[1].

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 462.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»